كامل كيلاني

قصص من ألف ليلة وليلة

أبو صير و أبو قير

رسوم : سمير عزيز

الدار النموذجية للطباعة والنشر
صيدا - بيروت

١ - «أَبُو صِيرٍ»

كانَ في الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ حَلَّاقٌ ذَكِيٌّ ، حَسَنُ الْخُلُقِ ، طَيِّبُ الْقَلْبِ ، اسْمُهُ : «أَبُو صِيرٍ» ، وَكانَ فَقِيرًا جِدًّا لا يَجِدُ قُوتَ يَوْمِهِ إِلَّا بِشِقِّ النَّفْسِ. وَكانَ يَشْكُو الْكَسادَ وَيُفَكِّرُ فِي تَرْكِ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَالسَّفَرِ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ يَتَرَقَّبُ الْفُرَصَ .

٢ - «أَبُو قِيرٍ»

وَكانَ بِجِوارِهِ صَبَّاغٌ ماهِرٌ فِي صِناعَتِهِ ، وَلٰكِنَّهُ ماكِرٌ خَبِيثٌ سَيِّئُ السُّمْعَةِ اسْمُهُ : «أَبُو قِيرٍ» . وَكانَ هذا الْجارُ شَرِهًا طَمَّاعًا . وَهُوَ مِثالٌ لِلْغِشِّ والْخِداعِ وَالْمُماطَلَةِ : إِذا حَدَّثَكَ كَذَبَ عَلَيْكَ ، وَإِذا وَعَدَكَ أَخْلَفَ وَعْدَهُ ، وَإِذا ائْتَمَنْتَهُ خانَكَ . فَكَرِهَهُ النَّاسُ ، وَكَفُّوا عَنْ مُعامَلَتِهِ . فَكَسَدَتْ صِناعَتُهُ ، وَلَمْ يُقْبِلْ عَلَيْهِ أَحَدٌ ، وَصارَ النَّاسُ يَحْذَرُونَهُ وَيُحَذِّرُونَ غَيْرَهُمْ مِنْ مُعامَلَتِهِ .

٣ ـ إِفْلاسُ « أَبِي قِيرٍ »

وَكانَ مِنْ عادَتِهِ إِذا جاءَهُ أَحَدٌ بِثَوْبٍ ـ لِيَصْبُغَهُ لَهُ ـ أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ الأَجْرَ مُقَدَّمًا ، بَعْدَ أَنْ يُوهِمَهُ أَنهُ سَيَشْتَرِي بِهِ أَصْباغًا .

فَإِذا انْصَرَفَ صاحِبُ الثَّوْبِ ذَهَبَ «أَبُو قِيرٍ» بِالثَّوْبِ إِلَى السُّوقِ ، فَباعَهُ وَاشْتَرَى ـ بِثَمَنِهِ وَبِما أَخَذَهُ مِنَ الأَجْرِ ـ ما شاءَ مِنْ أَطْيَبِ الْمَآكِلِ وَالْحَلْواءِ .

فَإِذا عادَ إِلَيْهِ صاحِبُ الثَّوْبِ ماطَلَهُ ، وَتَعَلَّلَ لَهُ بِأَعْذارٍ كاذِبَةٍ : يَدَّعِي ـ فِي الْيَوْمِ الأَوَّلِ ـ أَنَّهُ كانَ مَشْغُولًا بِبَعْضِ الضُّيُوفِ ، وَيَزْعُمُ ـ في الْيَوْمِ الثَّانِي ـ أَنَّ زَوْجَهُ وَلَدَتْ ، وَهكَذا ؛ حَتَّى يَمَلَّ صاحِبُ الثَّوْبِ ، فَيَطْلُبَهُ مِنْهُ لِيَصْبُغَهُ عِنْدَ غَيْرِهِ . وَحِينَئِذٍ يَقُولُ لَهُ «أَبُو قِيرٍ» :

«الْحَقُّ يا صاحِبي أَنَّنِي خَجِلٌ مِنْكَ جِدًّا . وَلَسْتُ أَرَى بُدًّا مِنْ مُكاشَفَتِكَ بِالْحَقِيقَةِ . فَقَدْ صَبَغْتُ ثَوْبَكَ أَحْسَنَ صَبْغٍ ، وَبَذَلْتُ جُهْدِيَ كُلَّهُ فِي إِتْقانِهِ . ثُمَّ جاءَ لِصٌّ خَبِيثٌ فَسَرَقَهُ ـ لِسُوءِ الْحَظِّ ـ مِنْ دُكَّانِي ، فَبَحَثْتُ عَنْهُ ، فَلَمْ أَجِدْهُ» .

فَيَنْصَرِفُ صاحِبُ الثَّوْبِ إِذا جازَتْ عَلَيْهِ حِيلَتُهُ ، أَوْ يَتَشاجَرُ مَعَهُ إِذا ارْتابَ (أَيْ : شَكَّ) فِي قَوْلِهِ ، ثُمَّ لا يَظْفَرُ مِنْهُ بِشَيْءٍ عَلَى الْحالَيْنِ .

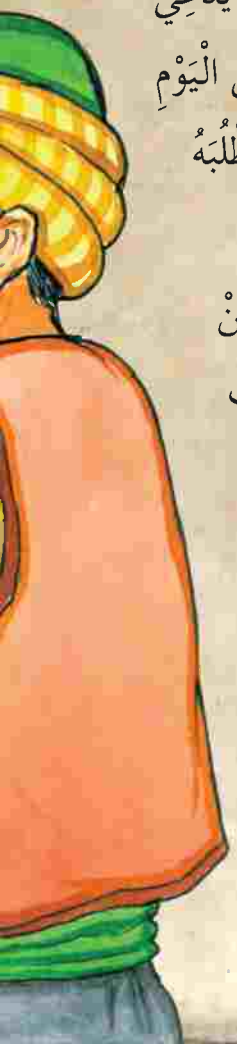

وَما زالَ كَذلِكَ حَتَّى عَلِمَ بِهِ الْقاضِي ، فَأَمَرَ بِإغْلاقِ دُكَّانِهِ ، حَتَّى يَأْمَنَ النَّاسُ شَرَّهُ .

٤ـ الْعَزْمُ عَلَى السَّفَرِ

وَكانَ «أَبُو صِيرٍ» يَرَى مُماطَلَةَ جارِهِ وَهَرَبَهُ مِنْ أَداءِ الْحُقُوقِ إِلَى أَصْحابِها ، فَيَنْصَحُ لَهُ بِالاسْتِقامَةِ ، فَلا يَسْمَعُ لَهُ قَوْلًا . فَلَمَّا أَغْلَقَ الْقاضِي دُكَّانَ «أَبي قِيرٍ» ، قالَ لِصاحِبِهِ «أَبي صِيرٍ» : «ما لَنا وَلِهذا الْمَكانِ ؟ أَلَيْسَ خَيْرًا لَنا أَنْ نُسافِرَ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ ، لَعَلَّنا نَجِدُ رِزْقًا أَحْسَنَ مِمَّا وَجَدْناهُ فِي هذا الْبَلَدِ؟».

وَكانَ «أَبُو صِيرٍ» ـ كَما قُلْنا ـ يَشْكُو الْكَسادَ ، وَيُفَكِّرُ فِي السَّفَرِ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ ، فارْتاحَ لِكَلامِ صاحِبِهِ ، وَوافَقَهُ عَلَى السَّفَرِ .

فَقالَ لَهُ «أَبُو قِيرٍ» : «عاهِدْنِي إِذَنْ عَلَى أَنْ نَعْمَلَ بِجِدٍّ ، وَنَقْسِمَ بَيْنَنا كُلَّ ما نُصِيبُ مِنَ الرِّزْقِ بِالسَّوِيَّةِ» .

فَعاهَدَهُ «أَبُو صِيرٍ» عَلَى ذلِكَ ، وَباعَ دُكَّانَهُ ، وَاسْتَعَدَّ لِلسَّفَرِ مَعَهُ بِأَوَّلِ سَفِينَةٍ تَقُومُ مِنَ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ .

٥ـ فِي السَّفِينَةِ

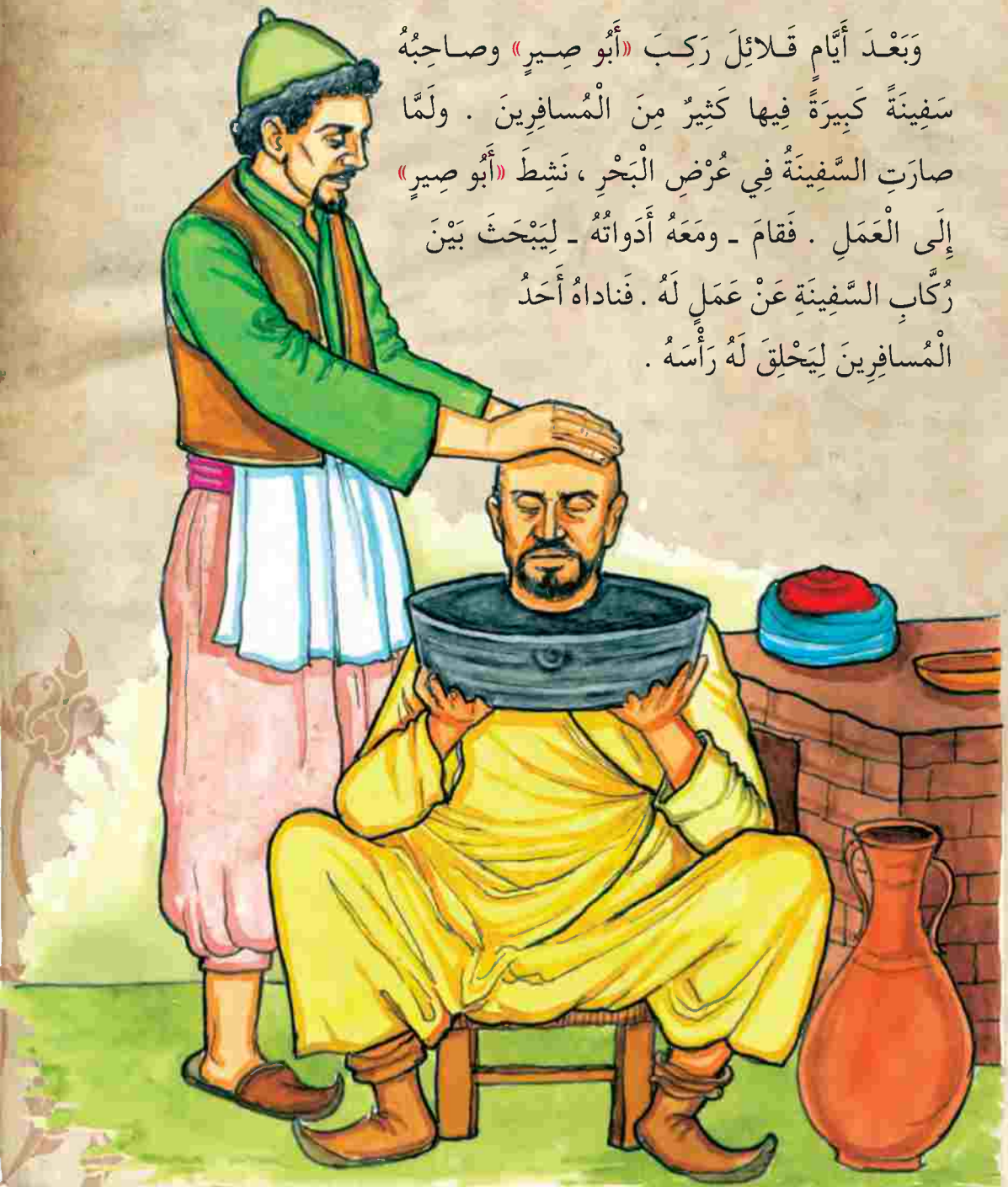

وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلائِلَ رَكِبَ «أَبُو صِيرٍ» وصاحِبُهُ سَفِينَةً كَبِيرَةً فِيها كَثِيرٌ مِنَ الْمُسافِرِينَ . ولَمَّا صارَتِ السَّفِينَةُ فِي عُرْضِ الْبَحْرِ ، نَشِطَ «أَبُو صِيرٍ» إِلَى الْعَمَلِ . فَقامَ ـ ومَعَهُ أَدَواتُهُ ـ لِيَبْحَثَ بَيْنَ رُكَّابِ السَّفِينَةِ عَنْ عَمَلٍ لَهُ . فَناداهُ أَحَدُ الْمُسافِرِينَ لِيَحْلِقَ لَهُ رَأْسَهُ .

وَلَمَّا انْتَهَى مِنْ عَمَلِهِ أَعْطاهُ شَيْئًا مِنَ الطَّعامِ وَالْمالِ . وَدَعاهُ ثانٍ وَثالِثٌ، فَلَمَّا انْقَضَى النَّهارُ عادَ «أَبُو صِيرٍ» إِلَى صاحِبِهِ ـ وَمَعَهُ طَعامٌ كَثِيرٌ ـ فَأَكَلا مَعًا . وَكانَ «أَبُو قِيرٍ» يُقْبِلُ عَلَى الْأَكْلِ بِشَهِيَّةٍ عَجِيبَةٍ ، وَشَرَهٍ لا مَثِيلَ لَهُ . وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِي دَعاهُ رُبَّانُ السَّفِينَةِ لِيَحْلِقَ لَهُ . وَسُرَّ مِنْ أَدَبِهِ وَمَهارَتِهِ ، فَدَعاهُ وَصاحِبَهُ إِلَى الأَكْلِ عَلَى مائِدَتِهِ كُلَّ يَوْمٍ . وَكانَ «أَبُو صِيرٍ» لا يَتَوانَى عَنِ الْعَمَلِ ، فَكانَ يَحْلِقُ كُلَّ يَوْمٍ لِبَعْضِ الْمُسافِرِينَ ، وَيَأْخُذُ مِنْهُمْ أَجْرَهُ ، وَلا يَضِنُّ عَلَى صاحِبِهِ «أَبِي قِيرٍ» بِشَيْءٍ يَطْلُبُهُ ، حَتَّى وَصَلَتِ السَّفِينَةُ ـ بَعْدَ عِشْرِينَ يَوْمًا ـ إِلَى مَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ ، فَنَزَلَ «أَبُو صِيرٍ» مَعَ صاحِبِهِ إِلَيْها .

٦ـ فِي الْمَدِينَةِ

وَلَمَّا طافا بِأَسْواقِها وَجَداها مُزْدَحِمَةً بِالتُّجَّارِ والصُّنَّاعِ ، فَعَزَما عَلَى الْإِقامَةِ فِيها أَيَّامًا . وَاسْتَأْجَرَ «أَبُو صِيرٍ» غُرْفَةً صَغِيرَةً فِي أَحَدِ الْفَنادِقِ لِيُقِيمَ فِيها مَعَ صاحِبِهِ . وَكانَ «أَبُو صِيرٍ» يُبَكِّرُ فِي الْقِيامِ مِنَ النَّوْمِ فَيَرَى صاحِبَهُ لا يَزالُ نائِمًا . فَإِذا أَيْقَظَهُ تَظاهَرَ بِالضَّعْفِ والْمَرَضِ . فَيَخْرُجُ «أَبُو صِيرٍ» وَحْدَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ يَتَلَمَّسُ رِزْقَهُ خِلالَ النَّهارِ ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى صاحِبِهِ بِالطَّعامِ ، فَيَأْكُلُهُ بِشَرَهٍ غَرِيبٍ . وَما زالَ كَذلِكَ أَكْثَرَ مِنْ شَهْرَيْنِ .

ثُمَّ مَرِضَ «أَبُو صِيرٍ» ، وَاشْتَدَّ بِهِ الْمَرَضُ وَالضَّعْفُ ، فَعَجَزَ عَنِ الْخُرُوجِ ، وَلَزِمَ الْفِراشَ . فَلَمَّا جاءَ الْيَوْمُ التَّالِي ، بَحَثَ «أَبُو قِيرٍ» فِي الْغُرْفَةِ عَنْ طَعامٍ يَأْكُلُهُ فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا . وَرَأَى صاحِبَهُ «أَبا صِيرٍ» مُسْتَغْرِقًا فِي النَّوْمِ . فَظَلَّ يُفَتِّشُ فِي

ثِيابِ «أَبِي صِيرٍ» حَتَّى عَثَرَ عَلَى كِيسِ نُقُودِهِ فَأَخَذَهُ مَعَهُ ، ثُمَّ خَرَجَ وَأَغْلَقَ بابَ الْغُرْفَةِ عَلَى صاحِبِهِ «أَبِي صِيرٍ» ، وَعَزَمَ عَلَى الْهَرَبِ مِنْهُ .

٧ـ مَصْبَغَةُ «أَبِي قِيرٍ»

ثُمَّ مَشَى «أَبُو قِيرٍ» فِي أَسْواقِ الْمَدِينَةِ ، فَرَأَى دُكَّانَ صَبَّاغٍ . فَوَقَفَ يَتَأَمَّلُ فِي الثِّيابِ الْمَصْبُوغَةِ ، وَهُوَ يَتَعَجَّبُ أَشَدَّ الْعَجَبِ ، لأَنَّهُ لَمْ يَرَ فِي الدُّكَّانِ إِلَّا اللَّوْنَ الأَزْرَقَ وَحْدَهُ . فَتَأَمَّلَ فِي مَلابِسِ الْمارَّةِ فَلَمْ يَرَ إِلَّا اللَّوْنَ الأَزْرَقَ ، وَاللَّوْنَ الأَبْيَضَ . فَازْدادَ عَجَبُهُ ، وَأَخْرَجَ مِنْدِيلَهُ الأَبْيَضَ ، وَطَلَبَ مِنَ الصَّبَّاغِ أَنْ يُلَوِّنَهُ لَهُ بِاللَّوْنِ الأَحْمَرِ .

فَقالَ لَهُ الصَّبَّاغُ : «نَحْنُ لا نَعْرِفُ إِلَّا اللَّوْنَ الأَزْرَقَ» . فَعَظُمَتْ دَهْشَةُ «أَبِي قِيرٍ» ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَقْبَلَهُ أَجِيرًا عِنْدَهُ ، لِيُعَلِّمَهُ كَيْفَ يَصْبُغُ بِالأَلْوانِ الْمُخْتَلِفَةِ الأُخْرَى .

فَرَفَضَ الصَّبَّاغُ ، وَقالَ لَهُ :

«نَحْنُ لا نَقْبَلُ ـ فِي هذِهِ الصِّناعَةِ ـ غَرِيبًا عَنَّا» .

فَذَهَبَ إِلَى صَبَّاغٍ ثانٍ وَثالِثٍ وَرابِعٍ ، فَلَقِيَ مِنْهُمْ مِثْلَ ما لَقِيَهُ مِنَ الصَّبَّاغِ الأَوَّلِ .

وَلَمْ يَكُنْ فِي قُدْرَتِهِ أَنْ يُنْشِئَ مَصْبَغَةً ، لِفَقْرِهِ وَقِلَّةِ ما مَعَهُ مِنَ النُّقُودِ .

فَذَهَبَ إِلَى الْمَلِكِ ، وَبَسَطَ لَهُ شَأْنَهُ .

فَسُرَّ الْمَلِكُ مِنْ فِكْرَتِهِ ، وَأَمَرَ بِبِناءِ مَصْبَغَةٍ كَبِيرَةٍ لَهُ فِي أَحْسَنِ شَوارِعِ الْمَدِينَةِ وَفْقَ ما يَشْتَهِي . وأَحْضَرَ لَهُ كَثِيرًا مِنَ الثِّيابِ لِيَصْبُغَها لَهُ ، فَصَبَغَها أَحْسَنَ صَبْغٍ بِأَلْوانٍ مُخْتَلِفَةٍ . فَفَرِحَ الْمَلِكُ بِذلِكَ ، وَكافَأَهُ أَحْسَنَ مُكافَأَةٍ .

وَأَقْبَلَ الْأُمَراءُ وأَعْيانُ الْمَدِينَةِ عَلَى مَصْبَغَتِهِ ، فَراجَتْ صِناعَتُهُ ، وَكَثُرَ مالُهُ ، وَأَصْبَحَ مِنْ كِبارِ الأَغْنِياءِ . ولَمْ يُفَكِّرْ لَحْظَةً واحِدَةً فِي صاحِبِهِ «أَبِي صِيرٍ» الَّذِي أَطْعَمَهُ وآواهُ ، وَبَذَلَ لَهُ كُلَّ ما يَسْتَطِيعُ مِنَ الْمُساعَدَةِ فِي أَيَّامِ مِحْنَتِهِ وَفَقْرِهِ .

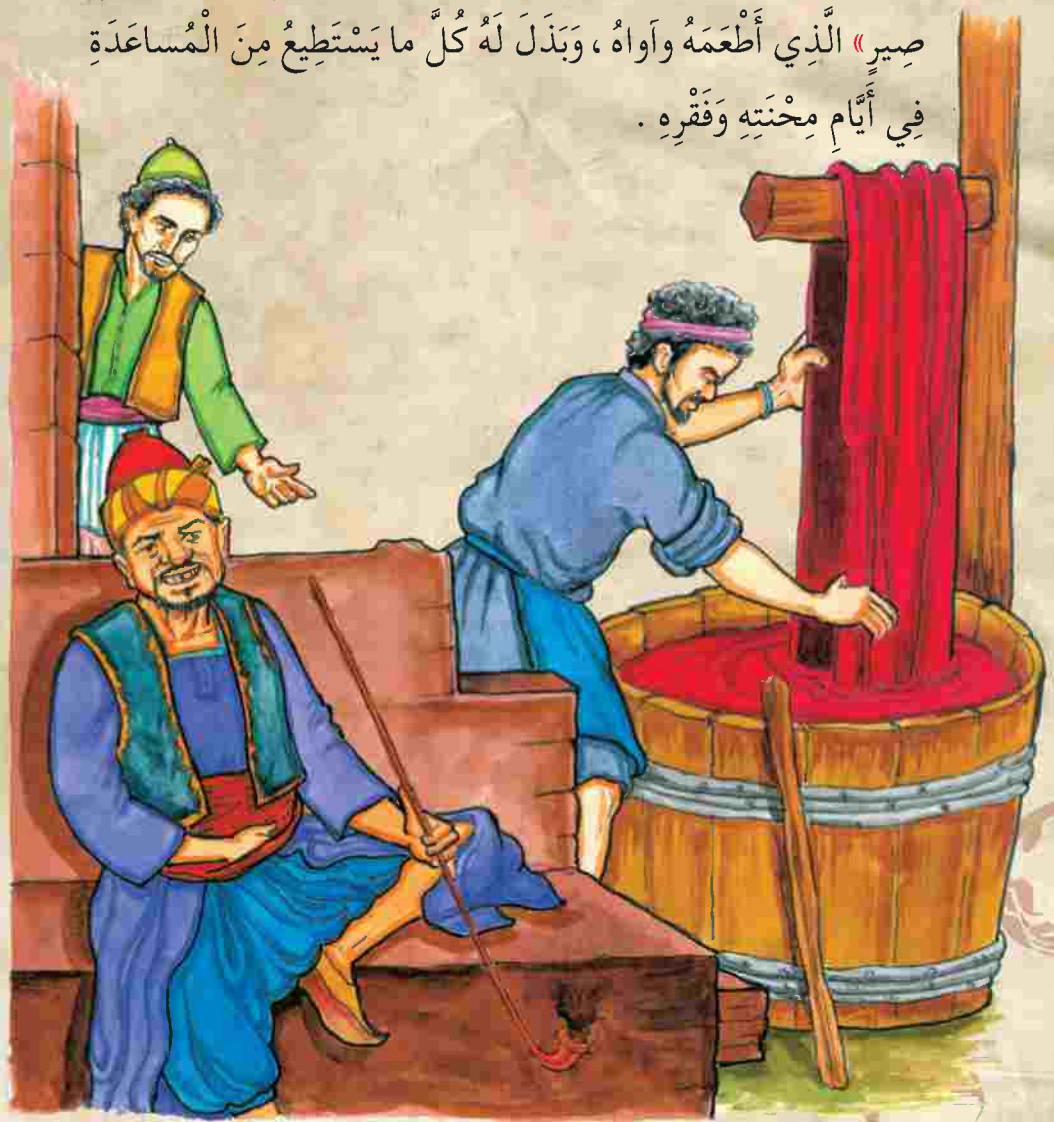

٨ ـ مُقابَلَةُ الصَّدِيقَيْنِ

أَمَّا «أَبُو صِيرٍ» فَقَدْ لَزِمَ فِراشَهُ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ، وَهُوَ لا يَسْتَطِيعُ الْحَراكَ مِنْ شِدَّةِ الْمَرَضِ، حَتَّى فَطَنَ إِلَيْهِ صاحِبُ الْفُنْدُقِ . فَذَهَبَ إِلَى غُرْفَتِهِ فَرَآها مُغْلَقَةً . فَبَحَثَ عَنْ مِفْتاحٍ يَفْتَحُها بِهِ، وَلَمَّا رَأَى «أَبا صِيرٍ» وَهُوَ مَنْهُوكُ الْقُوَى مِنْ شِدَّةِ الْمَرَضِ ، عَطَفَ عَلَيْهِ وَرَقَّ لَهُ قَلْبُهُ ، وَوَكَّلَ بِهِ خادِمًا يَخْدُمُهُ. وبَحَثَ «أَبُو صِيرٍ» عَنْ كِيسِ نُقُودِهِ لِيُعْطِيَ صاحِبَ الْفُنْدُقِ شَيْئًا مِنَ الْمالِ فَلَمْ يَجِدْهُ . فَقالَ لَهُ صاحِبُ الْفُنْدُقِ : «لا يَحْزُنْكَ ذلِكَ يا أَخِي ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي حاجَةٍ إِلَى الْمالِ» . وَما زالَ صاحِبُ الْفُنْدُقِ يُؤَسِّي «أَبَا صِيرٍ» وَيُعْنَى بِأَمْرِهِ ـ عِدَّةَ أَشْهُرٍ ـ حَتَّى شُفِيَ مِنْ مَرَضِهِ ، وَعادَ إِلَيْهِ نَشاطُهُ وَقُوَّتُهُ فَخَرَجَ مِنَ الْفُنْدُقِ ، وَمَشَى فِي إِحْدَى أَسْواقِ الْمَدِينَةِ ، فَرَأَى زِحامًا شَدِيدًا أَمامَ مَصْبَغَةٍ كَبِيرَةٍ . وَنَظَرَ فِي الْمَصْبَغَةِ فَرَأَى كَثِيرًا مِنَ الْخَدَمِ عَلَيْهِم أَفْخَرُ الثِّيابِ . وَرَأَى صَدِيقَهُ «أَبا قِيرٍ» جالِسًا فِي صَدْرِ الْمَكانِ ـ وَهُوَ يَأْمُرُ وَيَنْهى ـ فَفَرِحَ «أَبُو صِيرٍ» أَشَدَّ الْفَرَحِ بِما نالَهُ صَدِيقُهُ مِنَ النَّجاحِ وَالتَّوْفِيقِ . وَقالَ فِي نَفْسِهِ : «لَعَلَّهُ شُغِلَ عَنِّي طُولَ هذِهِ الْمُدَّةِ بِتَنْظِيمِ هذِهِ الْمَصْبَغَةِ الْكَبِيرَةِ ! وَلا شَكَّ أَنَّهُ سَيَفْرَحُ أَشَدَّ الْفَرَحِ حِينَ يَرانِي ، بَعْدَ أَنْ شُفِيتُ مِنْ مَرَضِي !» .

ثُمَّ دَخَلَ «أَبُو صِيرٍ» لِيُهَنِّئَ صاحِبَهُ بِما نالَهُ مِنَ النَّجاحِ وَالتَّوْفِيقِ . وَلكِنْ خابَ ظَنُّهُ . فَما كادَ يَراهُ «أَبُو قِيرٍ» حَتَّى صاحَ بِهِ غاضِبًا : «أَلا تَزالُ ـ أَيُّها

اللِّصُّ الْخَبِيثُ ـ تَتَسَلَّلُ إِلَى مَصْبَغَتِي لِتَسْرِقَ الثِّيابَ مِنْها ؟ أَلَمْ يَكْفِكَ ما سَرَقْتَهُ مِنِّي فِي الْمَرَّاتِ السَّابِقَةِ ؟ وَاللهِ لا بُدَّ مِنْ عِقابِكَ حَتَّى لا تَعُودَ إِلَى السَّرِقَةِ بَعْدَ هذا الْيَوْمِ» . ثُمَّ أَمَرَ غِلْمانَهُ بِضَرْبِهِ ، فَضَرَبُوهُ ضَرْبًا مُوجِعًا حَتَّى أُغْمِيَ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ الضَّرْبِ ، ثُمَّ أَلْقَوْا بِهِ فِي الطَّرِيقِ .

٩ـ حَمَّامُ «أَبِي صِيرٍ»

ولَمَّا أَفاقَ «أَبُو صِيرٍ» عادَ إِلَى غُرْفَتِهِ مَحْزُونًا مُتَأَلِّمًا مِمَّا حَدَثَ لَهُ . ثُمَّ خَرَجَ فِي الْيَوْمِ التَّالِي يَبْحَثُ عَنْ حَمَّامٍ يَسْتَحِمُّ فِيهِ ، فَلَمْ يَجِدْ . فَسَأَلَ النَّاسَ : أَيْنَ يَسْتَحِمُّونَ ؟ فَقالُوا لَهُ : «إِنَّنا نَذْهَبُ إِلَى الْبَحْرِ لِنَسْتَحِمَّ فِيهِ» . فَقالَ فِي نَفْسِهِ : «إِنَّ جَمالَ هذِهِ الْمَدِينَةِ الْكَبِيرَةِ لا يَتِمُّ إِلَّا إِذا أُنْشِئَ فِيها حَمَّامٌ» . ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى الْمَلِكِ ، وَشَرَحَ لَهُ فِكْرَتَهُ . فَرَضِيَ عَنْها ، وَأَمَرَ بِبِناءِ حَمَّامٍ فَخْمٍ ـ فِي أَحْسَنِ مَكانٍ فِي الْمَدِينَةِ ـ وَفْقَ ما يَشْتَهِي «أَبُو صِيرٍ» . وَلَمَّا فَرَغُوا مِنْ بِنائِهِ وَإِعْدادِهِ ، ذَهَبَ «أَبُو صِيرٍ» إِلَى الْمَلِكِ ، ودَعاهُ إِلَى زِيارَةِ حَمَّامِهِ . فَلَمَّا دَخَلَ الْمَلِكُ الْحَمَّامَ سُرَّ مِنْ نِظامِهِ وَنَظافَتِهِ ، وَأُعْجِبَ بِذَكاءِ «أَبِي صِيرٍ» وأَدَبِهِ إِعْجابًا كَبِيرًا . ثُمَّ خَرَجَ الْمَلِكُ ـ بَعْدَ أَنِ اسْتَحَمَّ فِيهِ ـ مَسْرُورًا راضِيًا . وَكافَأَ «أَبا صِيرٍ» أَحْسَنَ مُكافَأَةٍ . وَفِي الأَيَّامِ التَّالِيَةِ زارَ الأُمَراءُ والْوُزَراءُ وأَعْيانُ الْمَدِينَةِ حَمَّامَ «أَبِي صِيرٍ» ، وَأُعْجِبُوا بِهِ الإِعْجابَ كُلَّهُ . وَكانَ يُكْرِمُهُم غايَةَ الإِكْرامِ ، فَأَحَبُّوهُ جَمِيعًا . وتَتابَعَ النَّاسُ عَلَى حَمَّامِهِ .

وَلَمْ يَنْسَ «أَبُو صِيرٍ» صاحِبَ الْفُنْدُقِ الَّذِى أَسَّاهُ فِي مَرَضِهِ ، فَدَعاهُ إِلَى زِيارَتِهِ وأَكْرَمَهُ ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ كَثِيرًا مِنَ الْهَدايا الْفاخِرَةِ والنَّفائِسِ الْغالِيَةِ .

١٠ ـ «أَبُو قِيرٍ» يَزُورُ الْحَمَّامَ

وَسَمِعَ «أَبُو قِيرٍ» بِحَمَّامِ صاحِبِهِ الَّذِي ذاعَ صِيتُهُ ، فَذَهَبَ إِلَيْهِ . وَلَمْ يَكَدْ يَرَى صاحِبَهُ «أَبا صِيرٍ» حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيْهِ وَعانَقَهُ ، مُتَناسِيًا إِساءَتَهُ إِلَيْهِ وَضَرْبَهُ وَطَرْدَهُ . وَقالَ لَهُ : «أَهذِهِ يا أَخِي هِيَ حُقُوقُ الصُّحْبَةِ ؟ أَهكَذا يَنْسَى الصَّدِيقُ صَدِيقَهُ ؟ لَقَدْ بَحَثْتُ عَنْكَ فِي كُلِّ مَكانٍ فَلَمْ أَعْثُرْ عَلَيْكَ ، فَأَيْنَ كُنْتَ ؟» .

فَتَعَجَّبَ «أَبُو صِيرٍ» مِنْ كَلامِ صاحِبِهِ ، وَقالَ لَهُ : «أَلَمْ أَذْهَبْ إِلَى مَصْبَغَتِكَ لِزِيارَتِكَ ، وَكانَ نَصِيبِيَ الإِهانَةَ وَالطَّرْدَ ؟» . فَتَظاهَرَ «أَبُو قِيرٍ» بِالأَسَفِ ، وَقالَ لَهُ : «لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ! لَقَدْ حَسِبْتُكَ يا أَخِي ـ لِسُوءِ الْحَظِّ ـ اللِّصَّ الَّذِي تَعَوَّدَ سَرِقَةَ الثِّيابِ . وَقَدْ كُنْتُ مَشْغُولًا فَلَمْ أَتَثَبَّتْ مِنْ رُؤْيَتِكَ ! وَلَعَلَّ الْمَرَضَ قَدْ غَيَّرَ مِنْ مَلامِحِ وَجْهِكَ ، فَلَمْ أَعْرِفْكَ ! وَلَقَدْ كانَ مِنَ الْواجِبِ عَلَيْكَ أَنْ تُنَبِّهَنِي إِلَى خَطَئِي ـ حِينَئِذٍ ـ وَتَذْكُرَ لِي اسْمَكَ لأُقابِلَكَ بِما أَنْتَ أَهْلُهُ مِنَ التَّرْحِيبِ والإِكْرامِ» .

١١ ـ نَصِيحَةُ «أَبِي قِيرٍ»

وَلَمَّا سَمِعَ «أَبُو صِيرٍ» كَلامَ صاحِبِهِ ، حَسِبَهُ صادِقًا فِي دَعْواهُ فَعَذَرَهُ ، وَأَكْرَمَهُ كُلَّ الْإِكْرامِ . وَلَمَّا سَأَلَهُ «أَبُو قِيرٍ» عَنْ سَبَبِ إِنْشائِهِ هذا الْحَمَّامَ ،

قَصَّ عَلَيْهِ «أَبُو صِيرٍ» قِصَّتَهُ كُلَّها . فَقالَ لَهُ «أَبُو قِيرٍ» : «ولكِنَّكَ نَسِيتَ شَيْئًا واحِدًا لا يَكْمُلُ حَمَّامُكَ إِلَّا بِهِ ! » . فَقالَ لَهُ «أَبُو صِيرٍ» : «وَما هُوَ ؟». فَقالَ لَهُ: «أَنْتَ حَلَّاقٌ ذَكِيٌّ ماهِرٌ فِي صِناعَتِكَ . فَلَوْ حَلَقْتَ لِلْمَلِكِ ـ حِينَ يَزُورُ حَمَّامَكَ ـ لَزادَ بِذلِكَ سُرُورُهُ مِنْكَ» .

فَحَسِبَهُ «أَبُو صِيرٍ» مُخْلِصًا فِي نَصِيحَتِهِ ، وَشَكَرَها لَهُ ، وَوَعَدَهُ بِتَحْقِيقِها .

١٢ ـ وِشايَةُ «أَبِي قِيرٍ»

وَلَمَّا خَرَجَ «أَبُو قِيرٍ» مِنْ حَمَّامِ صاحِبِهِ ، ذَهَبَ مُسْرِعًا إِلَى الْمَلِكِ ، وَقالَ لَهُ : «لَيْسَ فِي قُدْرَتِي يا مَوْلايَ أَنْ أَكْتُمَ عَنْكَ حَقِيقَةَ هذا الرَّجُلِ الْخَبِيثِ الْماكِرِ ، فَقَدْ جاءَ هذا الْبَلَدَ لِقَتْلِكَ» .

فَدَهِشَ الْمَلِكُ ، وَلَمْ يُصَدِّقْهُ . فَقالَ لَهُ «أَبُو قِيرٍ» : «إِنِّي أَعْرِفُ هذا الرَّجُلَ . وَقَدْ أَخْبَرَنِي أَنَّ مَلِكَ الْجَزائِرِ ـ الَّذِي انْتَصَرْتَ عَلَيْهِ فِي الْعامِ الْماضِي وَقَهَرْتَهُ ـ أَوْفَدَهُ إِلَى مَدِينَتِكَ لِيَحْتالَ لِقَتْلِكَ ؛ وَوَعَدَهُ بِمُكافَأَةٍ عَظِيمَةٍ إِذا نَجَحَ فِي مَكِيدَتِهِ . فَاحْذَرْهُ ـ يا مَوْلايَ ـ وَاحْمَدِ اللهَ عَلَى نَجاتِكَ مِنْ شَرِّهِ فِي الْمَرَّةِ الأُولَى» .

فَقالَ لَهُ الْمَلِكُ : «وَما هِيَ الْمَكِيدَةُ الَّتِي دَبَّرَها لِقَتْلِي ؟» . فَقالَ لَهُ : «سَيَدْعُوكَ إِلَى زِيارَةِ حَمَّامِهِ مَرَّةً أُخْرَى ، ثُمَّ يَقُولُ لَكَ : إِنَّهُ حَلَّاقٌ ماهِرٌ ، وَإِنَّ الاسْتِحْمامَ لا يَتِمُّ إِلَّا بِالْحِلاقَةِ . وَقَدْ أَعَدَّ لِقَتْلِكَ مُوسَى ماضِيَةً مَسْمُومَةً» .

١٣ ـ غَضَبُ الْمَلِكِ عَلَى «أَبِي صِيرٍ»

وَفي الْيَوْمِ التَّالِي ذَهَبَ «أَبُو صِيرٍ» إِلَى الْمَلِكِ وَدَعاهُ إِلَى زِيارَةِ حَمَّامِهِ ، وَلَمَّا عَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَحْلِقَ لَهُ ، وَرَأَى فِي يَدِهِ مُوسَى الْحِلاقَةِ حَسِبَ «أَبا قِيرٍ» صادِقًا فِي وِشايَتِهِ .

فَغَضِبَ عَلَى «أَبِي صِيرٍ» غَضَبًا شَدِيدًا ، وَأَمَرَ كَبِيرَ الْخَدَمِ أَنْ يَضَعَهُ فِي غِرارَةٍ ، (أَيْ : زَكِيبَةٍ) ، ثُمَّ يُلْقِيَهُ فِي الْبَحْرِ . وَوَقَفَ الْمَلِكُ فِي النَّافِذَةِ لِيَراهُ .

١٤ ـ خاتَمُ الْمُلْكِ

وَكانَ كَبِيرُ الْخَدَمِ يُحِبُّ «أَبا صِيرٍ» لأَدَبِهِ وَمُرُوءَتِهِ . فَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَخْتَبِئَ فِي بَيْتِهِ ، ثُمَّ يُسافِرَ إِلَى بَلَدِهِ فِي أَوَّلِ سَفِينَةٍ قادِمَةٍ حَتَّى لا يَراهُ الْمَلِكُ . وَذَهَبَ كَبِيرُ الْخَدَمِ فَمَلأَ الْغِرارَةَ (أَيِ : الزَّكِيبَةَ) حِجارَةً وَرَمْلًا ، وَوَقَفَ عَلَى شاطِئِ الْبَحْرِ تَحْتَ نافِذَةِ الْقَصْرِ الْمَلَكِيِّ .

وَأَشارَ الْمَلِكُ إِلَيْهِ أَنْ يُلْقِيَ الْغِرارَةَ فَأَلْقاها ، وَسَقَطَ خاتَمُ الْمُلْكِ مِنْ إِصْبَعِ الْمَلِكِ ، وَهُوَ يُشِيرُ بِهِ إِلَى كَبِيرِ الْخَدَمِ .

فَعادَ الْمَلِكُ وَهُوَ مَغْمُومٌ أَشَدَّ الْغَمِّ . وَجَلَسَ «أَبُو صِيرٍ» عَلَى شاطِئِ الْبَحْرِ يَصْطادُ السَّمَكَ ، فَاصْطادَ سَمَكًا كَثِيرًا . وَلَمَّا شَقَّ السَّمَكَةَ الأُولَى

وَجَدَ فِيها خاتَمَ الْمُلْكِ فَلَبِسَهُ ، وَلَمَّا عادَ كَبِيرُ الْخَدَمِ إِلَى بَيْتِهِ أَرْسَلَ إِلَيْهِ خادِمًا ، فَأَشارَ إِلَيْهِ «أَبُو صِيرٍ» أَنْ يَحْمِلَ السَّمَكَ ، فَسَقَطَ رَأْسُهُ عَنْ جَسَدِهِ .

فَدَهِشَ «أَبُو صِيرٍ» أَشَدَّ دَهْشَةٍ .

١٥ ـ عاقِبَةُ الْخِيانَةِ

وَلَمَّا جاءَهُ كَبِيرُ الْخَدَمِ ، وَرَأَى الْخاتَمَ فِي إِصْبَعِهِ قالَ لَهُ : «احْذَرْ أَنْ تُشِيرَ بِخاتَمِكَ وَإِلَّا أَهْلَكْتَنِي ، فَإِنَّ مَلِكَنا لا يَحْكُمُ الرَّعِيَّةَ إِلَّا بِهِ ، وَهُوَ إِذا أَشارَ بِهِ إِلَى أَيِّ إِنْسانٍ قَتَلَهُ مِنْ وَقْتِهِ .

وَفِي اسْتِطاعَتِكَ أَنْ تَصِيرَ مَلِكَ الْمَدِينَةِ الآنَ» . فَذَهَبَ «أَبُو صِيرٍ» إِلَى الْمَلِكِ وَأَعادَ إِلَيْهِ الْخاتَمَ .

فَقالَ لَهُ الْمَلِكُ : «قُلْ لِي بِماذا أُكافِئُكَ عَلَى مَعْرُوفِكَ ؟» . فَقالَ لَهُ : أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ يا مَوْلايَ سَبَبَ غَضَبِكَ عَلَيَّ» . فَأَخْبَرَهُ بِما قالَهُ «أَبُو قِيرٍ» .

فَعَجِبَ «أَبُو صِيرٍ» مِمَّا سَمِعَ ، وَقَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ مَعَهُ ، فَغَضِبَ الْمَلِكُ عَلَى «أَبِي قِيرٍ» ، وَأَمَرَ بِوَضْعِهِ فِي غِرارَةٍ ، وَإِلْقائِهِ فِي الْبَحْرِ . وَشَفَعَ فِيهِ «أَبُو صِيرٍ» فَلَمْ يَقْبَلِ الْمَلِكُ شَفاعَتَهُ .

وَماتَ «أَبُو قِيرٍ» الْمِيتَةَ الَّتِي دَبَّرَها لِصاحِبِهِ . أَمَّا «أَبُو صِيرٍ» فَقَدْ كافَأَهُ الْمَلِكُ أَحْسَنَ مُكافَأَةٍ . وَعادَ إِلَى الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَصارَ مِنْ أَغْنِيائِها . وَقَضَى حَياتَهُ كُلَّها عَلَى أَحْسَنِ حالٍ، وَأَهْنَإِ بالٍ .